خواطريّ عن آية الله السيّد رضي المرعشيّ (قده):

في أواخر الثمانينيّات وعقد التسعينيّات كانت العمامة عزيزة بسبب الظروف القاهرة محفوظة بالأسر العلميّة، وكنّا نألف في أزقة النجف الأشرف وشوارعها كوكبة من العلماء والزهّاد والعبّاد أمثال (آل الخرسان، وآل بحر العلوم، وآل الجواهريّ، وآل المرعشيّ، وآل الحكيم، وآل كاشف الغطاء، وآل الخوئيّ ...)، فضلاً عن أفراد غطارفة كالسيّد السيستانيّ، والشيخ الفيّاض، والشيخ مرتضى البروجرديّ، والشيخ محمّد أمين زين الدين، والشيخ الغرويّ، والشيخ الأنواريّ، والشيخ القاموسيّ، وآخرين..

حملوا عاتق الأمّة في رقابهم، فترى الواحد منهم يُعدّ مدرسة في حركاته وسكناته، تراهم في السوق، وفي الحرم العلويّ، وفي المساجد، وفي المجالس، وفي التشييع، وفي العتبات العالية، وجوههم تنبيء عن قربهم، يلهجون بذكر الله تعالى ليل نهار، ويتدارسون العلم في كلّ محفل ومجلس.

وأمّا السيّد المرعشيّ، فإذا طلبت شيئًا عن نكران الذات والزهد والتواضع، فتعال وادخل سوق الحويش، لتراه يشتري الفواكه والخضار والخبز واللحم بنفسه، ولا يقبل أن يحمل عنه، بالرغم من مرضه الذي عرف به وهو ضعف الأعصاب، فتراه يحمل ما يشتريه بيديه المرتعشتين، ويتنفس الصعداء بحمله حينًا بعد حين، ومثله في هذا الدرس الأخلاقيّ السيّد محمّد باقر السيستانيّ وأولاد السيّد محمّد رضا السيستانيّ حفظهم الله تعالى، فهم يتبضعون من السوق نفسه بأنفسهم كسائر الناس ولا يرضون أن يحمل أحد عنهم.

كان يصلّي ظهرًا في مسجد الشيخ الأنصاريّ، المعروف بمسجد الترك الواقع في سوق الحويش، ويؤم خلفه الكثير من المصلّين، وخصوصًا أهل المحال من سوق الحويش، ويجلس بعد الصلاة ليجيب عن أسئلة الناس ويستخير لهم، فترى صفّ الناس عن يمينه وعن شماله، وقد سمعت الكثير عن خيرته المجرّبة، وإذا أخبرك بشيء تطمئن النفس إليه، وكان أوّلًا يأخذ الاستخارة بالقرآن، ثمّ عدل عنها بالسبحة؛ لمرضه إلّا إذا طُلب منه، وكان يؤتى له بالقرآن، ولا يأخذ استخارة بالقرآن الذي كُتب عليه وقف الحرم العلويّ، فإذا حصل بين يديه أرجعه.

وليلًا كان يصلّيّ في مسجد آل جبرين الواقع في شارع القبلة، وبعد الصلاة كعادته يجلس ليجيب عن أسئلة الناس ويستخير لهم، فترى صفّ الناس عن يمينه وعن شماله، ولم يترك الصلاة بالناس في أواخر سنينه، حتّى وهو يتكيء في مشيه على الآخرين، وحتّى وهو في عربة تنقله لبيت الله تعالى.

وبعدها يزور حرم أمير المؤمنين - عليه السلام – كل ليلة، ومكانه أمام الضريح في الزاوية التي قبل الرأس الشريف، وكان مواظبًا على زيارة ليلة الجمعة مع مجموعة من العلماء والطلبة، منهم الشيخ البروجرديّ، والشيخ الأنواريّ والشيخ علاء أبو الطابوق، وفي سيارة تكاد أن تكون أكثر من عادية وهي ما تعرف بالأو- أم (**om**)، ثمّ بعد السقوط ركبوا أحدث منها وهي (كوستر)، بينما يذهب البعض للزيارة في سيارات فاخرة، وبعد سقوط النظام صار يؤم الناس في حرم العبّاس -عليه السلام - من جهة باب القبلة في كلّ ليلة جمعة، فيمتليء الصحن بصلاته ويعجل بها احترامًا للزائرين، وكان قبل سقوط النظام يصلّي ليلة الجمعة جماعة في مسجد صغير يقع في محلّة العبّاسيّة، ثمّ بعدها يذهب لزيارة الحرمين.

وكان لا تفوته الزيارات المخصوصة في النجف وكربلاء، ويحضر المجالس الحسينيّة، ويواظب على حضورها، وتراه في كلّ ذي وذا يلهج بذكر الله تعالى، فلسانه لا يقف عن ذكره في كلّ حالته.

وكان تدريسه طلبتَّه في بيته الواقع في محلّة الحويش قبالة بيت شيخ الطائفة الشيخ الأنصاريّ – قدّس سرّه – ونُقل لي إنّه كان إذا بدأ تدريس الكتاب من الأوّل أو في ابتداء التدريس يخرج صدقة ويأمر طلبته بإخراج الصدقة.

وكان بكّاءً في المجالس حتّى أنّي أذكر أنّ من عادة المحقّق آية الله السيّد محمّد مهدي الخرسان – دام ظله – أنّه في شهر المحرّم يذكر الزيادات التي في المقتل الحسينيّ ثم ينقضها بالدليل العلميّ، فعندما يسرد السيّد الخرسان قصة فاطمة العليلة ثمّ ينقض خبرها ترى دموع السيّد المرعشيّ تنحدر الواحدة تلو الأخرى حين حكاية خبرها مع نحيب يسمع.

حتى أنّه عندما اشترى آية الله العظمى السيّد السيستانيّ بيت والده السيّد جعفر المرعشيّ مع قطعة أرض مجاورة وأوقفهما لبناء مدرسة الشيخ محمّد جواد البلاغيّ، شرط السيّد المرعشيّ أن يستمر المجلس العاشورائيّ في المدرسة لعشرة أيّام، وعرف مجلسه بمجلس السيّد المرعشيّ، وكان يحضره ومن يلوذ به.

وكان عندما يسأل عن المرجعيّة يخبر أنّها للسيّد السيستانيّ – دام ظلّه – وكان يزور السيّد السيستانيّ – دام ظلّه – هو والشهيد الشيخ مرتضى البروجرديّ كلّ ليلة خميس من الأسبوع، وكان المرحوم السيّد عبد الستار الحسنيّ يقول: ((الليلة زار السيّد السيستانيّ؛ الرضيّ والمرتضى))، واستمر على هذه الزيارة الأسبوعيّة حتى بعد مقتل الشهيد الشيخ البروجرديّ، ومن ورعه ربما سأله أحدهم وجاء بالجواب بعد يوم للمراجعة، وفي المسألة العويصة كان

بعضهم ينتظر الجواب يوم الأربعاء؛ كونه يأخذ الجواب من المرجع الأعلى – دام ظلّه – بعد زيارته ليلة الخميس.

وكان يساعد طلبة العلم والفقراء، ويشجع على طلب العلم، وأذكر أنّ المرحوم السيّد رضا الحبوبيّ أخذني معه لطلب مساعدة لي، في زمن الحصار الظالم، فسأله ماذا يعمل؟ فأخذتني هيبة السيّد المرعشيّ وقلت: ((أنا لا أعمل))، فقال رحمه الله: ((لا يجوز أن أعطيه وهو لم يعمل البتة فيتكيء على الحقوق الشرعيّة، فليعمل وأعطيه))، فذكرني السيّد الحبوبيّ بعملي عنده، وأعطاني لتذكريّ، وكانت له علاقة خاصة بالمرحوم السيّد رضا الحبوبيّ، وأحياناً يطلب الاستخارة من السيّد الحبوبيّ؛ لاعتقاده به.

ونقل الحجّة المحقّق السيّد محمّد حسين الكشميريّ: ((إنّ من مآثره أنّ المرحوم الإمام الخمينيّ لما غادر النجف لم يكن هناك من يجرؤ على أن يقبل منه الأمانات؛ لأنّ ذلك يجعله عرضة للإعدام بلا شك، لكن المرحوم توطن لذلك فأودع الإمام الخميني – أعلى الله مقامه – عنده ما كان قد اجتمع عنده من الحقوق الشرعيّة ليوزعها على طلبة العلوم الدينية شهرًا بشهر كما في السابق إلى أن تنفد)).

لقد أثّر في شخصه ظلم النظام السابق واضطهادهم لطلبة العلم، فقد رأيته بأمّ عيني في سجن الرضوانيّة، وقد أثر فيه فقد أخيه السيّد محمّد تقيّ المرعشيّ في الانتفاضة الشعبانيّة، وصار متكفلًا بجملة من ذوي رحمه، ثمّ أعقبه موت ولده الشاب العزيز السيّد مهدي بمرض عضال، وأثر به مرضه وزاد الطين بلة يومًا بعد يوم إلى أن افتقدناه بجلسة الدار الطويلة أثر زيادة العلّة.

وفي يوم السبت ٢٨ من شهر رجب سنة ١٤٤٢هـ الموافق ١٣/ ٣/ ٢٠٢١ فجعنا بفقده، فقد توفي قبل الزوال في مستشفى الكفيل الواقعة في كربلاء أثر الكورونا ـ على ما قيل ـ ، وشيّع عصرًا في كربلاء وصلّى عليه الشيخ عبد المهدي الكربلائيّ، ثمّ انتقل الجثمان إلى النجف الأشرف وبُيّت في مسجد السيّد السبزواريّ، وشيّع صباح يوم الأحد بتشييع مهيب وصلّى عليه الحجّة السيّد محمّد تقي السيّد محمّد علي الحكيم، ودفن في الحجرة ذات الرقم (٣٠) الواقعة في الجهة الشرقيّة من الحرم العلويّ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

أحمد علي مجيد الحلّيّ في يوم وفاته قدّس الله نفسه.